فارس

عبد الغني باجقني

8927109
B165PA

فخر

أبي فراس و أبي الطيب

بحث وتحليل وموازنة

وهي الرسالة التي اجتاز بها مؤلفها امتحان شهادة الآداب العليا
في الجامعة السورية

سنة ١٣٥١ — ١٩٣٢

59450

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

١٣٥١ هـ مطبعة ابن زيدون ١٩٣٢ م

Cat. June 1945 Replacement

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إلى ناشئة الأدب العربي ، إلى من بأيديهم نهضة العربية وتعاليها وآمال العروبة وأمانيها أقدم هذه الرسالة التي اجتزت بها امتحان شهادة الآداب العليا ، وهي أول مؤلف لي في هذا الموضوع الجليل ، فاني وإن كنت قد ألفت قبلها عدة رسائل مدرسية في قواعد اللغة وإنشائها والتاريخ والجغرافيا فلم أكتب في الأدب قبل هذه المرة لعلمي بسعة مجاله وترامي أطرافه وشعوري بالحاجة إلى دراسته على الطريقة التحليلية الحديثة ، حتى إذا انشئ معهد الآداب في الجامعة السورية سنة ١٩٢٩ م سارعت إلى الانتساب إليه سعياً وراء الوصول إلى الحاجة التي كنت أشعر بها مع ضيق أوقاتي المنفقة في القيام باعباء وظيفتي وبما تحتاج إليه مؤلفاتي المدرسية من إعادة النظر والتنقيح والاشراف على الطبع ، فكنت أختلس الوقت اختلاساً لمراجعة دروس المعهد ومحاضراته وأجتاز الامتحانات السنوية في دورانها الأولى إلى أن كانت السنة الثالثة ففوجئنا في آخرها بأمر مبرم يحتم علينا وضع رسائل أدبية كمرحلة أولى في طريق الامتحان النهائي وكان يشمل مواد السنين الثلاث ، فوضعت رسالتي هذه في خمس عشرة ليلة فقط ، وهي مدة قصيرة لم تكف للاحاطة بالموضوع من جميع نواحيه وهو الفخر في شعر أبي فراس الحمداني وأبي الطيب المتنبي ، فأرجو ممن يطلع عليها أن يراعي عذري فيعذرني إذا ما ألفى شيئاً من النقص في البحث والاستقصاء ، ولاسيما إذا راعى فقدان المصادر بالنسبة إلى الشاعر الأول الذي غمط الأدباء حقه من الكلام

علية والبحث في شعره كما تكلموا على غيره من الشعراء وبحثوا في أشعارهم ، كأن الشهرة العظيمة التي نالها معاصره أبو الطيب كوّنت ستاراً كثيفاً بينهم وبينه ، فلم يلمحوا من خلاله إلا اليسير من فضله ، على أنهم لو اخترقوا هذا الستار بابصارهم لشاهدوا خلفه عبقرية لشاعر آل حمدان في الفخر وفي العواطف لم يطاوله فيهما كثير من الشعراء ، وهذا ما أهاب بي إلى الاقدام على الكتابة عنه ولكن في الفخر وحده مع مقابلته بفخر أبي الطيب ، وإلى عقد النية على شرح ديوانه وإظهاره بين المطبوعات الأدبية بحلة قشيبة إيفاء بأقل مايستحقه هذا الشاعر الشريف ومساعدة لمن ستحدثه نفسه من الادباء بزيادة البحث والاستقصاء ؟

دمشق في ١٠ المحرم سنة ١٣٥١ عبد الغني باجقني

أبو فراس وأبو الطيب

أبو فراس الحَمْداني وأبو الطيب المتنبي من أشهر الشعراء الذين نشؤوا في العهد العباسي ، عاشا في عصر واحد وهو العصر الرابع للهجرة ، واجتمعا مدة غير قصيرة في مكان واحد وهو مجلس سيف الدولة بحلب ، وكانت لهما فيه مواقف مشهورة ومعارضات شديدة جرّهما إليها تعاظم أبي الطيب من جهة وبغض أبي فراس له من جهة أخرى ، وقد طرق كلاهما باب الفخر على اختلاف صفاته وصوَره في عصر أمست فيه هذه الناحية من الشعر مهملةً بعد أن كان حظها عند الشعراء المتقدمين موفوراً ، لذلك أحببت أن أكتب في فخر هذين الشاعرين كتابةً أسلك فيها سبيل التحليل والموازنة : فأبحث عن العوامل التي حملت كلاً منهما على الفخر ، ومنشإ هذه العوامل ، والصفات التي قصدا إليها في شعرهما ، والأساليب التي سارا عليها والألفاظ التي استعملاها فيه ، ولكنني رأيت قبل الدخول في البحث مباشرة أن أقدم كلمة في نشوء الفخر عند العرب والأمور التي كانوا يرفعون من شأنها ويعدّونها مفاخر يتباهَون بها ، لأن ذلك من جملة الأمور التي سأستعين بها عند البحث ومن أهم المقاييس التي سأستند عليها في الحكم .

الفخر

الفخر مدح يخص المرء به نفسه وقومه مُباهاةً بكرم العنصر وقوة العصبية ومَنَعة الجانب والشجاعة والكرم والإباء والوفاء والمُروءة وغير ذلك من المزايا والخصال الشريفة التي كان شأنها عند العرب عظيماً والتباهي بها مألوفاً جارياً على ألسنة شعرائهم وفي مجالس مُنافَراتهم لايرون فيه عيباً ولا يعدونه غروراً ، لاسيما إذا أُيّد بذكر المآثر والوقائع ، حتى لقد يغتفرون فيه المبالغة ويستمرئونها إذا لم تكن بعيدة عن الحقيقة والواقع ، ولا غرابة في ذلك لأن الأخلاق في جميع الأمم إضافية (نسبية) : فما حسن منها فهو الحسن وما قبح منها فهو القبيح عند تلك الأمة ، ولا قيمة لنوع اعتبارها عند الأمم الأخرى ، لأن أوجه النظر إلى الأخلاق مختلفة بسبب اختلاف المدارك العقلية والقابليات النفسية ونَمَط الحياة الاجتماعية ، اللهم إلا ماوقع عليه الاجماع وحكم به العقل المطلق .

الأخلاق إضافية

فالاخلاق ومثلها العادات تسير عند كل أمة مع حاجاتها وصور معيشتها جنباً الى جنب ، ألا ترى الكرم عند العرب مفخرة من أعظم المفاخر التي يتباهَون بها وليس له هذا الشأن عند الأمم الاخرى التي تختلف عن الامة العربية في شكل

الحياة الطبيعية والاجتماعية ؟ ثم ألا ترى الميسر عند عرب الجاهلية فضيلة يتفاخرون بها ويمدحون عليها ؟ وما ذلك إلا لأنهم يعدونه نوعاً من الكرم وداعياً الى انتفاع الفقير :

وهم أيسار لقمان إذا أغلت الشتوة أبداء الجُزُر (١)

ولكن لما جاء الإسلام بأحكامه التي هذّبت حياتهم الاجتماعية أبطل هذه العادة بعد أن بين أن إثمها أكبر من نفعها .

بلاد العرب أثرها في أهلها

عاش العرب في بلاد غير ذات زرع في الجملة ، قلّت مياهها وجف هواؤها ، فكثرت بسبب ذلك أراضيها المجدبة وقلت بقاعها المخصبة ومدنها المتحضرة ، ومن ثَمَّ كان جلُهم بدْواً يعيشون تحت الخيام على تربية الإبل وغيرها من المواشي ، يتخذون من لحومها وألبانها طعاماً ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً ، يتربّصون (٢) مواسم الغيث ويرحلون في طلب المرعى ، اللهم إلا سكان المدن كصنعاء وعَدَن ومكة ويثرِب والحِيرة وبُصرى فقد كانوا على جانب غير صغير من الحضارة ورفاهة العيش .

ولّد فيهم هذا النوعُ من المعيشة الخشنة الكرمَ والشجاعة

---

(١) الابداء جمع بدء وهو النصيب من الجزور .
(٢) يتربصون ينتظرون .

والإباء وشدة الغضب عند جرح الكرامة أو انتهاك الحرمة .

وأعانت طبيعةُ بلادهم الهادئة التي تملأُ النفوس رَوعةً وجلالاً على تهذيب شعورهم وشحذ أذهانهم وتقوية حافظتهم ، حتى صاروا مطبوعين لا يتكلفون ، وأصبح كل شيءٍ لديهم بديهة وارتجالا .

نشأة العرب الاستقلالية

وعوَّدتهم نشأتهم الاستقلالية الاعتدادَ بأنفسهم والتمسكَ بحريتهم الفردية التي لا حدَّ لها :

ولكنَّ نفساً حرةً لا تُقيم بي على الذَّأم إلا ريثما أتحوَّلُ

حتى صاروا ينفِرون من السيطرة ويأبَوْن الانقياد ، لأنهم يرون فيه عبوديةً لا يرضونها إلا مع الضيف :

وإني لعبدُ الضيف ما دام ثاوياً وما فيَّ إلا تلك من شيم العبدِ

وأصبحت القبيلة عندهم الوَحدة التي يرتكز عليها نظامهم الاجتماعي ، فكانوا فيها متضامنين كل التضامن ينصرون أخاهم ظالماً كان أو مظلوماً :

لا يسألون أخاهم حين يندُبهم في النائبات على ما قال برهانا

وكانوا متعصبين لها أشد التعصب ، يعتصمون بحبلها ويحرِصون على التزام طريقتها :

وهل أنا إلا من غزيَّةَ إن غوت غوَيت وإن ترشَد غزيةُ أرشَدِ

مدار الفخر عند العرب

علا عندهم شأن الكرم والشجاعة والسُّودَد ، حتى صارت هذه الأمور الثلاثة مدار فخرهم والمثل الأعلى الذي تصبو إليه نفوسهم .

أما الكرم فكان يتجلى في منح المئات وتحمُّل الديات [1] وفي نحر الجزر للضيوف وإطعام الفقراء أيام الجدب وليالي القُر .

وأما الشجاعة فكانت تتجلى في ميادين القتال ومواقف النجدة والذب عن الحرمة والدفاع عن القبيلة والإغارة على القبائل المعادية ، حتى صارت الحرب نظامَهم المتَّبع وحياتهم المألوفة .

وأما السُّودَد فكان يتحقق في الانتساب إلى بيت رفيع العماد ، اشتهر رجاله بالسيادة على قومهم أو بمآثرهم الحميدة في مواقف النجدة ومواطن الكرم واصطناع العشيرة واحتمال الجريرة — إلى غير ذلك من الأمور التي تُشرِّف أصحابها وتُعلي منزلتهم في نفوس القوم .

علا عندهم أيضاً شأن الشعر والشعراء لأنهم وجدوا الشعر صالحاً لتخليد مآثرهم ، ووجدوا الشعراء حُماة عن أعراضهم وأحسابهم ودُعاة لنشر أمجادهم ومفاخرهم .

---

(١) تحمل هرم بن سنان والحارث بن عوف وحدهما ديات القتلى في حرب داحس والغبراء وكانت ثلاثة آلاف بعير !!!

الفخر الصادق
الفخر الكاذب

أكثروا من الفخر بالكرم والشجاعة والوفاء وطيب العنصر ومَنَعة الجانب وعزة الجار وغير ذلك من الخصال الشريفة والصفات الحميدة حتى امتلأت بها أشعارهم ، وكان منه الفخر الصادق المطابق للحقيقة أو القريب منها ، ومنه المُبالَغ فيه الى حد الكذب المردود .

مثال الأول قول السموءل :

وفيت بأدرع الكنديّ إني اذا ما خان أقوام وفيت

وقول عمرو بن كُلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نُقرَّ الخسف فينا

فإن السموءل وفى بأدرع امرئ القيس وآثر الثُكل على تسليمها ، وإن ابن كلثوم لم يُحجم عن قتل الملك عمرو ابن هند حين أحس بأنه يحاول إذلاله .

ومثال الثاني قول ابن كلثوم نفسه :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا !

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا !

فإنه قد بالغ في هذا الفخر وغالى في الادعاء بمقدرة قومه حتى كذب : فإنهم لم يملؤوا البر (إلا إذا كان يعني به منازلهم !) ، ولم تكن لهم في البحر سفن لا كثيرة ولا قليلة

ولم تكن لهم الدنيا ومن عليها — طبعاً !!!

ولكن فخر العرب على كل حال دليل على كبر نفوسهم واعتدادهم بشجاعتهم وتمسكهم بقوميتهم ، ودليل أيضاً على أن الخصال التي فخروا بها كان شأنها لديهم عظيماً ولا يزال حتى الآن عظيماً ، فقد مرت القرون وتعاقبت الأجيال ولم يفتأ كل من يجري في عروقه دم العروبة يشعر بعظم شأن الكرم والشجاعة والوفاء والحلم وطيب العنصر ، ويفخر بها إن كان له نصيب منها ولو لم يستطع الجهر بهذا الفخر لأن الجهر به بات غير مألوف بيننا .

طرق شعراء العرب في الجاهلية أبواباً أخرى من الشعر كالمديح والهجاء والنسيب والرثاء والوصف والحكم وغير ذلك ، وجاء بعدهم الإسلاميون على اختلاف طبقاتهم فطرقوا هذه الأبواب نفسها مع شيء من التجديد في الأسلوب والصور الشعرية تبعاً لسنة التطور ، إلا أنهم أقلوا من الشعر الفخري بعد العهد الأموي عهد العصبية القومية والعروبة الخالصة ، كأن هذا النوع من الشعر كان يسير مع هذه العصبية جنباً إلى جنب ، فلما جاء عهد الدولة العباسية وبرزت العناصر الاعجمية طرأ الانحلال على العصبية العربية وانتشرت الشعوبية وسادت

الاقلال من الشعر الفخري بعد العهد الاموي

معيشة القصور وكثرت مجالس اللهو ، فانصرف الشعراء حينئذ إلى ماينا سب هذا التطور من الشعر : فبالغوا في مدح الخلفاء والأمراء وفي وصف القصور والرياض والملاهي ، وطرقوا باب المجون والتغزل بالغلمان — إلى غير ذلك مما دعت اليه معيشة الحضارة وحياة اللهو ، وأهملوا جانب الفخر إهمالاً كاد يكون كاملاً لولا أن ظهر بينهم شاعران متعاصران عرضا لهذا النوع من الشعر وذكّرا به القوم بعد أن أمسى منسياً ، هذان الشاعران هما أبو فراس الحمداني وأبو الطيب المتنبي .

ابو فراس ونشاته

أبو فراس هو الحارث بنُ سعيد بن حمدان ، كان أميراً قبل أن يكون شاعراً ، تحدر من أسرة عربية شريفة تعلو في نسبها إلى تغلب بن وائل ، وكان رجالها على جانب كبير من البطولة وعلوّ الهمة وقوة العصبية ، وكان حمدان جد أبي فراس قد اشتهر بالشجاعة والكرم وحسن التدبير ، وأورث أبناءه هذه الصفات العالية فنشؤوا ذوي نفوس كبيرة تعشق المجد وتستسهل الصعاب ، ووافق ظهورُهم ضعف الدولة العباسية ومناوأة قُواد الأعاجم لها وسعيهم في بسط سيطرتهم عليها ، فقام أبناء حمدان يناضلون عن الخليفة من جهة ويعملون في سبيل مصلحتهم من جهة أخرى ، فاستولوا على أطراف الجزيرة

الفراتية ثم على بلاد الشام الشمالية ، فكانت مَنبِج من نصيب سعيد بن حمدان والد أبي فراس وحمص من حظ سيف الدولة ابن عبد الله بن حمدان ، ثم تغلَّب سيف الدولة على حلب وأطرافها فأسس فيها إمارة عربية قوية ، وأنشأ له قصراً فخماً جمع فيه من العلماء والأدباء والشعراء رجالاً لم يجتمع مثلهم إلا في قصور الخلفاء .

نشأ أبو فراس في هذا القصر العظيم بين علماء اللغة والنحو وشيوخ الأدب والشعر ورجال الحرب والصيد من الحاشية الأميرية ، فشبَّ مُبرِّزاً في حَلبتي [1] السيف والقلم ، جامعاً بين بطولة الشجعان وعبقرية الشعراء ، مولَعاً بالمجد والفخر بنفسه وآله وقومه شأن أبناء الأشراف من عرب الجاهلية ، ولما انكشفت محاسنه لنظر الأمير أُعجب بابن عمه الناشئ إعجاباً شديداً ، فاصطنعه لنفسه وأعلى مكانه على سائر أهل بيته ودعاه في بعض الأيام بسيدي ! فزها أبو فراس بهذا المكان الممتاز الذي تبوَّأه دون إخوته وبني عمه وعرف به كيف يبني مفاخره :

تبوأت من قرمَيْ معدٍّ كليهما مكاناً أراني كيف تُبنى المفاخر [2]

---

(١) الحلبة في الاصل مجال الخيل للسباق .

(٢) القرم السيد ويعني بقرمي معد ابني عمه سيف الدولة وناصر الدولة .

ولما بلغ أَشُدَّه واستد[١] ساعده نهدَ[٢] إلى الروم أعداء بلاده وملته[٣] يردّ غاراتهم ويقاتلهم قتال الأبطال المدرَّبين، حتى إذا وقف القتال عاد الى قصر ابن عمه يرأس الديوان ويجالس شيوخ العلم والأدب.

فإذا عرفنا شرف الأُسرة الحمدانية وأمجادها وعرفنا القبيلة التي تتحدر منها وهي تغلب تلك القبيلة التي أنجبت المهلهل ابن ربيعة وعمرو بن كلثوم استطعنا أن نفهم الأسباب التي حملت أبا فراس على الفخر وأن ندرك معنى قوله:

أَعزُّ بني الدنيا وأعلى ذوي العُلى ... وأكرم من فوق التراب ولا فخر!

أبو فراس والشعر

أخذت ديوان هذا الشاعر المطبوع في بيروت سنة ١٩١٠[٤] فوقع نظري الأول على أربعة أبيات كان مُستهلاً بها الديوان وهي:

أبدأ

الشعر ديوان العرب ... أيضاً وعنوان الأدب
لم أعدُ فيه مفاخري ... ومديحَ آبائي النُّجب
ومقطَّعاتٍ ربما ... حلَّيت منهن الكتب

---

(١) استدّ ساعده وتسدد على الرمي استقام:
أعلمه الرماية كل يوم ... فلما استد ساعده رماني
(٢) نهض وبرز. (٣) الملة الدين.
(٤) مطبوع طبعاً رديئاً وفيه كثير من التصحيف والتحريف.

لا في المديح ولا الهجا ء ولا المُجون ولا اللعب

فبدأت أكبره وأعتقد أن الأُفق الذي يرنو إليه غير الآفاق التي ينظر إليها سواه من الشعراء : فإنه بعد أن عرَّف في البيت الأول قيمة الشعر عند العرب من الناحيتين التاريخية والأدبية ذكر أنه اقتصر فيه على مفاخره ومديح آبائه ومقطَّعاتٍ رباً [1] بها عن مدح غيرهم وعن الهجاء والمجون واللعب ، فكأنه رأى في مدح غير آبائه تزلُّفاً وفي الهجاء سَفَهاً وفي المجون خلاعةً وفي اللعب عَبَثاً يحط كل ذلك من قدره وشرف نفسه .

نعم رأيته مرةً في أول شبابه يسحب رَيْطه [2] إلى حانة خمار يطلب فيها اللهو دون أن يرى في ذلك عاراً على فتىً مثله :

تواعدنا لآذار بسعىً غير مختار
وقمنا نسحب الرّيط إلى حانة خمار
فلم ندر وقد فاحت لنا من جانب الدار
بخمار من القوم نزلنا أم بعطار

---

(١) رفعها عن مدح غيرهم ولم يرضها إلا لهم .
(٢) الريط جمع ريطة وهي هنا الثوب الرقيق .

وقلنا أوقد النار لطرّاق وزُوّار

وما في طلب اللهو على الفتيان من عار

ثم لم أره فعل مثلها فكأنها جهلة فُتوّة وانقضت ، فقد حاد عن طريق الشراب واللهو إلى سبيل المجد والبأس والجود :

لئن خُلق الأنام لحسوِ كأسٍ ومزمار وطُنبور وعود

فلم يُخلَق بنو حمدان إلاّ لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجود

وأنِف من أن يُعرَف بالمداح أو بالشاعر إذا أُريد به المدّاح المتزلف أو النديم المؤانس :

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي فلا أنا مدّاح ولا أنا شاعر

وفضّل أن يُعرف بربّ السيف :

وصناعتي ضرب السيوف وإنني متعرّض في الشعر بالشعراء

كيف كنت أتصور ابا فراس

قرأت ديوان أبي فراس كلّه وعرضت على ذهني حالاته المختلفة التي كان يدل عليها شعره : فكنت تارةً أتصوّره شاعراً شريفاً واقفاً بين قومه حاملاً لواءَ عزهم منادياً بقوّتهم ومَنَعتهم :

لقد علمت سَراة الحي أنّا لنا الجبل الممنّع جانباه

يفيءُ الراغبون إلى ذُراه ويأوي الخائفون إلى حماه

وتارةً أتصوّره واقفاً وحده معتداً بنفسه يفخر بعلوّ همته :

إذا ما العز أصبح في مكانٍ سموت له وإن بعُد المزار

وآونةً يتراءى لي فارساً شجاعاً قد اعتلى متن فرسه واعتقل رمحه وجرّد سيفه وهجم على الروم يزعزع كتائبهم ويمزّق صفوفهم ويقول :

تطالبني بيض الصوارم والقنا بما وعدت جَديَّ فيَّ المخايل

ومرةً أراه أسيراً على أبواب « خَرْشنة[1] » مُحاطاً بأعدائه ولكنه شامخ الرأس رافع الجبين يُنشد هذه الأبيات :

إن زرت خرشنةً أسيرا فلقد حللت بها مغيرا !
ولقد رأيت النار تنـ ـتهب المنازل والقصورا
ولقد رأيت السبي يجـ ـلب نحونا حُوّاً وحورا
نختار منه الغـادة الـ ـحسناء والظبي الغريرا
إن طال ليلي في ذُرا كِ فقد نعمت به قصيرا
ولئن لقيت الحزن فيـ ـك فقد لقيت بك السرورا
ولئن رُميت بحادث فلأُلفَيَنَّ له صَبورا
من كان مثلي لم يمت إلا قتيلا أو أسيرا !

ومرة أخرى أُشاهده في مقر أسره يوسِفُ في قيده وقد أبلت الهموم جسده ولوّحت وجهه وهو يناجي حمامة كانت تنوح بالقرب منه :

---

(١) بلد للروم قرب ملطية — معجم البلدان .

أقول وقد ناحت بقربي حمامة ... أيا جارتا هل تشعرين بحالي ؟
معاذَ الهوى ماذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببالِ
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا ... تعالَيْ أقاسمك الهموم تعالِ [1]
تعالَيْ تَريْ روحاً لديَّ ضعيفةً ... تَرَدَّدُ في جسم يُعذَّب بالي
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ... ويسكت محزون ويندُب سالي ؟!
لقد كنتِ أولى منك بالدمع مقلةً ... ولكنّ دمعي في الحوادث غالي !!

قرأت الديوان على هذا النحو وتصورت صاحبه على هذه الحالات المختلفة ، فوجدته لم يترك الفخر في واحدة منها حتى في حالة الأسر التي تُذِل الجبابرة : فهو إن حلّ خرشنة أسيراً فلقد حل بها قبل ذلك مغيراً ، ولئن رُمي بحادث فسيُلفى له صبورا ، ومن كان مثله في شجاعته وإقدامه فلا يموت إلا قتيلا أو أسيراً ؛ ووجدته في مناجاة الحمامة يختم حديثه بهذه الجملة التي تسدُّ مسدَّ قصيدة كاملة في الفخر « ولكن دمعي في الحوادث غالي !! » .

أثر شعر أبي فراس في نفسي

وقد أبقت قراءة شعره في نفسي أثرين عميقين لا أظنهما يزولان منها في المستقبل مهما طال أمده :

(١) قال في المصباح : تعالَ فعل أمر تتصل به الضمائر باقياً على فتحه وربما ضُمت اللام مع جمع المذكر السالم وكسرت مع المؤنثة .

الأثر الأول عطف وحنان على هذا الشاعر الشاب الذي لم يُمتَّع طويلاً بشبابه ، عطف وحنان شديدان أبقتهما في نفسي رومياته وهي أرق شعره وأشده تأثيراً في النفس ، ومن يقرأ له القصيدة التي مطلعها :

ياحسرةً ما أكاد أحملها آخرُها مُزعج وأوَّلُها

ولا يشاركني في العطف عليه بل والبكاء له ؟

الأثر الثاني إكبار وإجلال له أبقتهما في نفسي فخرياته الصادرة عن روحه الشريفة ، فقد كانت مثالاً صادقاً لسودَده وشجاعته وعلوّ همته .

ديوان أبي الطيب

وضعت ديوان أبي فراس بعد أن فرغت منه وتناولت ديوان أبي الطيب وكنت قد قرأت أكثره في السنة الدرسية الأولى ، تناولته لأبحث فيه عن الشعر الفخري خاصةً ، فوقع نظري على خمسة أبيات قيل أنشدها في صباه منها هذا البيت :

أمِطْ عنك تشبيهي بما وكأنَّه فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي !

فقلت في نفسي : شاعرٌ ناشئٌ يُعجَب الناس به ويلهجون بتشبيهه فيأبى عليهم هذا التشبيه لأنه لم يرَ أحداً فوقه بل ولا أحداً مثله ، شاعر هذا شأنه وهو في ربيع صباه لا شك

في أنه حائز لصفات ومزايا كريمة ورثها عن قومه وكسبها في نشأته حملته على العُجب بنفسه والفخر بعبقريته ، لذا رأيت من الواجب قبل البحث في شعره الفخري ومقابلته بشعر أبي فراس أن أذكر كلمة عن نسبه والطور الأول من أطوار حياته :

أبو الطيب ونشأته

أبو الطيب هو أحمد بن الحسين الجُعفي ، يرجع في نسبه من ناحية أبيه إلى سعد العشيرة إحدى قبائل مَذحج المشهورة بالفصاحة وحسن البيان ، ومن ناحية أُمه الى هَمْدان التي اعتُرف لها بالشجاعة والفروسية ، فهو يماني من الناحيتين ، عريق في العروبية ، متصل النسب بقبائل لها شهرة في ميدان الفصاحة وحَلبة الفروسية ، متحدر من قوم دأبهم خوض الغمرات واقتحام الأخطار حتى كأنَّ نفوسهم ترى السكنى في الأجساد عاراً تأنَف منه :

وإني لمن قوم كأنّ نفوسهم بها أَنَفٌ أن تسكن اللحم والعظما

وُلد سنة ٣٠٣ في الكوفة مدينة اللغة والشعر والأدب ، فتعلم فيها القراءة والكتابة ، ولازم أهل العلم يأخذ عنهم ، وتردَّد على الورّاقين يقرأ ما يقع تحت يده من الكتب حتى حصَّل من وراء ذلك شيئاً غير قليل من اللغة والأدب والأخبار ، ثم سافر مع والده إلى الشام يتنقل بين باديتها وحضرها ويختلف

إلى علماء اللغة والنحو يأخذ من علمهم ويُسمعهم من شعره ، ثم رأى أن سَعة العلم باللغة لا تكون إلا بالمعيشة في البادية ، فخرج إلى منازل بني كلب فأقام بينهم مدةً يصحبهم في غزواتهم ويُنشدهم أشعاره ويأخذ عنهم اللغة حتى أحاط بغريبها وحُوشيّها ، وانطبعت صورة البادية في نفسه انطباعاً ظهر أثره على شعره ولازمه طول حياته ، ثم رجع إلى الشام يضرب في مناكبها التماساً للرزق ، ويتنقل بين مدنها يمدح من يؤمل نَداه إلى أن اتصل بأبي العشائر الحمداني عامل سيف الدولة على أنطاكية ، فأكرمه وعرف منزلته في الشعر والأدب ، ثم عرَّف به سيفَ الدولة فأخذه معه إلى حلب ، وهناك أكرم مثواه وأجازه بأسنى الجوائز ومالت نفسه إليه ، فسلمه إلى الرُّواض فعلَّموه الفروسية والطِّراد والمُثاقفة ، وصحب سيف الدولة في بعض غزواته ومدحه بقصائد كثيرة زادت في شهرته وخلَّدت اسمه في صفحات التاريخين : الأدبي والحربي .

هذا هو أبو الطيب وهذه هي نشأته ، فهل في طبيعته التي ورثها عن أجداده وهل في نشأته التي نشأ عليها مايحمله على إكبار نفسه والتفاخر بها على سواه ؟

بواعث الفخر في أبي الطيب

فإذا علمنا أن قومه الذين تحدر منهم كانوا لسان العرب وأحلاس الخيل [1] وأن للدم تأثيراً في العبقريات فلا نستبعد انتقال موهبة الفصاحة وطبيعة الشجاعة منهم إليه على سبيل الإرث، وإذا علمنا أنه نشأ نشأة صالحة حصّل فيها لغة واسعة وأدباً جمّاً وفروسية مهما كانت درجتها، إذا عرفنا هذا كله علمنا أن بواعث الفخر فيه تالدة موروثة وطارفة مكسوبة.

وجد نفسه فرعاً لأصل كريم جامعاً لصفات ومزايا حسنة تُعلي قدر صاحبها وترفع من شأنه حتى في مجالس الملوك، فتكوّنت فيه أخلاق الكبر والأنفة وعزة النفس وشدة الطموح إلى الرئاسة وما تدعو إليه هذه الأخلاق من التزام جانب الشهامة والعفة والصبر وقوة العزيمة، فأُعجب بنفسه إعجاباً شديداً استولى على مشاعره وملك عليه لُبه حتى صرّح به وبين سببه:

إن أكن مُعجَباً فعُجب عجيب ... لم يجد فوق نفسه من مزيد!
أنا تِرب الندى ورب القوافي ... وسِمام العدى وغيظ الحسود

ولكنه بالغ في البيت الاول وادعى خلاف الواقع في بعض البيت الثاني، لأنه إن سلمنا بأنه رب القوافي وسمام

(١) الآلفون لركبوها، والاحلاس في الاصل جمع حِلس وهو مِسح يجلل به الدابة.

العدى وغيظ الحسود فلا نسلم بأنه كان في حال من أحواله تِرباً للندى لأنه كان جِدَّ حريصٍ على المال لما ذاقه في شبابه من ألم الفقر والفاقة ، لذا تحس باطمئنان نفسك إلى صدقه وبانجذابها اليه حين تسمعه يفتخر بأدبه وشعره لأنه أديب وشاعر :

أمثلة من فخره الصادق

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

* * *

وما الدهر إلا من رُواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر مُنشدا

أو بعزة نفسه وصبره لأنه كان عزيز النفس صبوراً في أكثر مواقفه :

فلا عبرت بي ساعة لا تُعزّني ولا صحبتني مُهجة تقبل الظلما

* * *

قد هوّن الصبرُ عندي كلَّ نازلة ولينّ العزمُ حدَّ المركب الخشن

أو بتمرسه بالآفات وإقدامه على الأخطار لأنه لاقى في حياته من الخطوب وركب من الأخطار مايسوّغ له الفخر بذلك :

تمرست بالآفات حتى تركتها تقول أمات الموت أم ذُعر الذعر

وأقدمت إقدام الأتيّ كأن لي سوى مُهجتي أو كان لي عندها وتر

أو بسعة آماله وعِظم مراده لأنه كان واسع الآمال عظيم المراد :

ولكنَّ قلبًا بين جنبيَّ ماله مدًى ينتهي بي في مُرادٍ أحُدُّه

أو بعفته لأنه كان عفيفًا حقًا صرفته مطالب المجد والعظمة عن التلهي بالنساء :

وترى المروَّةَ والفتوَّةَ والأُبُوَّ ةَ فيَّ كلٌّ مليحة ضراتها

« وفي هذا المعنى وبنفس الأسلوب يقول أبو فراس :

كأن الحجا والصون والعقل والتقى لديَّ وربات الحجال ضرائر

فما أشبههما في التزام العفة ! ثم ما أشبههما في أسلوب التعبير عن هذا المعنى ! فهل سرق أحدهما من الآخر ؟ أم كان ذلك من الصور والتعابير الشائعة التي لا يختص بها شاعر دون غيره ؟ أرجح الاحتمال الثاني لأني لا أظن هذين الشاعرين المعروفين بأنفتهما واعتدادهما بأنفسهما ينحطان إلى أن يسرق أحدهما من الآخر مع ما يحمل من الموجدة عليه ، ولو حاولت التسليم بالاحتمال الأول لردَّني عنه شدة الشبه بين البيتين إذ لا يعجز أبو الطيب ولا أبو فراس عن أداء هذا المعنى بغير هذه الصورة . »

تشعر وأنت تقرأ مثل هذه الأبيات لأبي الطيب بشيء من الرَّوعة في نفسك تحملك على إكباره ، ولكنك لا تشعر بشيء من ذلك حين تسمعه يُغرق في الإعجاب بنفسه ويُسرف في الفخر بها إلى أبعد من الحد المعقول :

شدة عجبه بنفسه

أيَّ محل أرتقي أيَّ عظيم أتقي ؟

وكلُّ ما قد خلق الله وما لم يخلق

مُحتقَر في همتي كشعرة في مفرِقي !

ادعاؤه ماليس له وغلوه في وصف قدرته

أو تسمعه يدّعي ما ليس له ويغالي في وصف قدرته غلواً شديداً :

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مُرد
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده وضرب كأن النار من حره برد!

فما هو هذا الحق الذي له ؟ وأنّى له هؤلاء المشايخ الذين سيطلب بهم هذا الحق الموهوم ؟ وأنّى له مثل هذا الطعن والضرب اللذين غالى في وصفهما وهوّل بشدتهما أكثر من عنترة وعمرو بن معديكرب ؟ وهل فعل شيئاً مما توعّد به ؟ لا شك في أن حب العظمة الذي تمكن في نفسه واستولى على مشاعره هو الذي حمله على هذا النوع من الفخر الممجوج .

وهو وإن فخر كثيراً بنفسه فلم ينس الفخر بقومه :

فخره بقومه

وإني لمن قوم كأنّ نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما!

وقد يجعل نفسه مصدر كل شرف لحق بهم :

لا بقومي شرُفت بل شرُفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

ثم يرى أن كلامه هذا قد يُشعر بقلّة شرفهم فيستدركه بما يجعلهم به فخر العرب كلهم :

وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريد

وهذا البيت أراه آية في الروعة وجمال الصورة لولا مافيه

من الغلوّ الشديد ، وما ألجأه إلى ذلك سوى الإسراف في المباهاة بشرف نفسه والإعجاب بها إلى غير حدّ ؛ فانظر إلى قول أبي فراس فيما يشبه هذا المعنى :

فخر أبي فراس بأسلافه

فإن يمض أشياخي فلم يمض مجدها ولا دَثَرت تلك العلى والمآثر
نَشيد كما شادوا ونبني كما بنوْا لنا شرف ماضٍ وآخر غابر

تجده يفخر بخلود مجد أسلافه وبأنه سيبني منه مثل مابنوا فيضم إلى سالف الشرف آنِفه ، كل ذلك مع اجتناب الغلوّ في الفخر والبعد عن التكلف في التعبير .

فخر أبي فراس قومي

زد على ذلك أن فخره بقومه وأُسرته كان أكثر من فخره بنفسه شأن الشعراء الأقدمين الذين كانت عنايتهم بمفاخر قبائلهم تَشغلهم عن الاهتمام بمفاخرهم حتى كأنهم لا يشعرون لأنفسهم بوجود خاص ، فقلَّ أن تراه يفخر بنفسه دون أن يذكر قومه ويستمدَّ من مآثرهم وأمجادهم ، وإذا أردت مثالاً لذلك فاقرأ قصيدته الرائية التي خص بها رجال أسرته وعشيرته ، وهي طويلة تربو على مئتي بيت ، سار فيها على أُسلوب مطبوع بطابَع البساطة المستعذَبة واستهلها بالغزل (الصناعي) على النَّمَط المعروف عند شعراء ذلك العهد ، ثم تخلص منه تخلُّصاً حسناً ببيتين أظهر فيهما صيانته

وعفته عن اللذة مع قدرته عليها :

ولي فيكِ من فرط الصبابة آمر ودونكِ من حسن الصيانة زاجر
عفافكَ غيٌّ إنما عفة الفتى اذا عفَّ عن لذاته وهو قادر

ثم بدأ بنفسه ففخر بهمته وشجاعته وقوة عزمه :

نفى الهمَّ عني همةٌ علَوية وقلب على ماشئت منه مؤازر
وأسمرُ مما يُنبت الخطُّ ذابل وأبيضُ مما تطبع الهندُ باتر
وقلب يُقرُّ الحربَ وهو محارب وعزم يُقيم الجسم وهو مسافر

ثم ارتقى إلى ذكر أجداده وبيان مآثرهم في مواطن الكرم والسياسة والمجد :

فجدي الذي لمَّ العشيرةَ جودُه وقد طار فيها للتفرق طائر
تحمل قتلاها وساق دياتِها حَمولٌ لما جرَّت عليه الجرائر
وجدي الذي ساس الديار وأهلها وللدهر ناب فيهما وأظافر
ثلاثةَ أعوام يُكابد مَحلَها أشمُّ طويل الساعدين عُراعر (١)
فآبوا بجدواه وآب بشكرهم وما فيهما في صفقة المجد خاسر (٢)

ثم عطف إلى ذكر أعمامه ووقائعهم في أعدائهم :

وعمي الذي أردى الكُماة وفاتكاً وما الفارس القتَّال إلا المجاهر

---

(١) الاشم السيد ذو الأنفة ، والعراعر الشريف .
(٢) الصفقة العقد .

وعمي الذي سُلت بنجد سيوفه فروّع بالغورين من هو غائر

* * *

أولئك أعمامي ووالديَ الذي حمى جنبات الملك والملك شاغر

ثم عدّد مناقب والده ووقائعه، وانتقل بعد ذلك إلى مدح ابن عمه سيف الدولة فأطنب، ولكنه لم يهمل نفسه في هذا المدح حتى لا يُرمى بالتزلّف ولا يُوصفَ بالمداح، فذكر أن فخره صِنو فخره، وأنه يُساهمه في عَليائه ويُشاطره، وأن له معه أيامًا ومواقفَ كان مكانُه منها بينَ الفضل ظاهرَه:

ألا قل لسيف الدولة القَرم إنني على كل شيءٍ غيرِ وصفك قادر
فلا تُلزمني خُطةً لا أُطيقها فمجدك غلاّب وفضلك باهر
ولولم يكن فخري وفخرك واحداً لما سار عني بالمدائح سائر
ولكنني لا أُغفل القول عن فتىً أساهم في عَليائه وأُشاطر
وعن ذكر أيام لنا ومواقف مكانيَ منها بيّنُ الفضل ظاهر

وبعد أن سرد مناقب سيف الدولة ووقائعه في الروم بأسلوب قَصصي جميل انتقل إلى ذكر إخوته وبعض رجال قومه، فذكر أسماءهم وأيامهم التي اشتهروا بها ثم ختم القصيدة بهذا البيت:

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي فلا أنا مدّاح ولا أنا شاعر!

سبب كثرة الفخر القومي في شعر أبي فراس وقلته في شعر أبي الطيب

ولكن إذا عرفنا التفاوت الكبير في شرف النسب بينه وبين أبي الطيب فلا نستغرب كثرة الفخر في شعره بأُسرته وأمجادها وبقومه ومآثرهم .

عرفنا أن أبا الطيب متحدر من قبائل يمانية عريقة في العروبية معروفة بالفصاحة والفروسية ، ولكننا لم نعرف لآبائه الذين يصلونه بتلك القبائل أمجاداً أو مآثر يُذكرون بها ويُمدحون عليها ، وأظن أبا الطيب نفسه لم يعرف لهم شيئاً من ذلك ، ولو عرفه لما أغفل ذكره والمباهاة به ولما قصر أكثر فخره على نفسه .

أما أبو فراس فقد أعلمنا أنه من بيت رفيع العماد بعيد مذاهب الاطناب :

لنا بيت على عنق الثُّريا بعيد مذاهب الأَطناب سامي

وعرَّفنا بأبيه وأعمامه وأجداده ، وأنبأنا بأمجادهم ومآثرهم في قصيدته الرائية الآنفة الذكر ، والتاريخ نفسه يؤيد ذلك .

وعرفناه من أُسرة أمراء يرتفعون في نسبهم إلى أشهر قبائل ربيعة وهي تغلب قبيلة المهلهل وعمرو بن كلثوم الشاعرين الفخورين اللذين ملآ بوقائعهما ومفاخرهما صفحات كثيرة من تاريخ العرب القومي والأدبي ، لذلك لا نعجب إذا رأيناه

يُكثر من الفخر بأُسرته وقومه وينحو نحو شاعري تغلب في المباهاة بعزة الجار ومَنَعة الجناب وحلول الأعالي وما إلى ذلك من الفضل والتفضل والرئاسة :

ألم ترنا أَعزَّ الناس جارا ... وأمرعَهم وأَمنعهم جنابا
لنا الجبل المطلُّ على نزار ... حللنا النجد منه والهضابا
تُفضلنا الأنام ولا نُحاشَى ... ونوصَفُ بالجميل ولا نُحابَى [1]
وقد علمت ربيعة بل نزار ... بأنا الرأس والناس الذُّنابى

أو وجدناه يميل في بعض الأحيان إلى المبالغة كعمرو بن كلثوم ، ولكنها مبالغة مألوفة من شاعر سريّ مثله يفخر بآل سَراة كآله :

إذا كان منا واحد في قبيلة ... علاها وإن ضاق الخناق حماها
وما اشتورت إلا وأصبح شيخها ... ولا احتربت إلا وكان فتاها [2]
ولا ضربت بين القباب قبابه ... وأصبح مأوى الطارقين سواها

لم يهمل أبو فراس مفاخر نفسه

وهو مع إكثاره من المباهاة بمفاخر قومه لم يُهمل مفاخر نفسه ، ألم يكن نفسه سَرياً شجاعاً ؟ ألم تشهد له نساءُ بني معدّ بالظل المديد والكرم الواسع والجأش الثابت والطعن السريع ؟ :

---

(١) لانحاشى لا يستثنى أحد منا ، لانحابى لايمال الينا بالتزلف .
(٢) اشتورت تشاورت واحتربت تحاربت .

سلي عنا نساءَ بني معدٍّ يقلن بما رأين وما سمعنه
ألست أمدَّهم لذويَّ ظلاً وأوسعهم لدى الاضياف جفنه ؟
وأثبتهم لدى الحدَثان جأشاً وأسرعهم الى الفرسان طعنه ؟
ألست أقرَّهم للضيف عيناً ألست أمرَّهم في الحرب لُهنه ؟[1]
متى مايدن من أجل كتابي يكن بين الأعنّة والأسنّه !

نعم كان أمدَّهم لذويه ظلاً وأوسعهم كرماً بل وأكثرهم مُروءةً وحفاظاً :

أنا الجار لا زادي بطيءٌ عليهمُ ولا دون مالي في الحوادث باب
ولا أطلب العوراءَ منهم أُصيبها ولا عورتي للطالبين تُصاب

وكان أيضاً أثبتهم جأشاً وأسرعهم طعناً ، فهو الذي ردَّ غارة بني قُشير بخمسة عشر فارساً وشدَّ عليهم بهذا العدد القليل حتى هزمهم واسترد منهم أموالاً كانوا استلبوها في طريقهم من عشيرة مُوالية لآل حمدان :

أيا عجباً لأمر بني قُشير أراعونا وقالوا القوم قُلُّ !
وكانوا الكُثرَ يومئذٍ ولكن كثُرنا إذ تعاركنا وقلُّوا
فولَّوْا للقنا والبيض فيهم وفي جيرانهم نَهَلٌ وعَلُّ

وهو الذي أثخن في بني كلاب بِبالس حتى ألقوْا إليه السَّلَمَ

---

(١) اللهنة في الأصل مايتعلل به قبل الغداء .

وأتوه طائعين :

سلي عنا سَراة بني كلاب ببالسَ[1] عند مُشتجَر العوالي
لقيناهم بأسياف قصار كفين مؤونةَ الأسَل الطوال

وهو الذي ثبت على حرب الروم ثباتاً عجيباً حتى صارت الحرب طعامه وشرابه :

فلا تصفنّ الحرب عندي فإنها طعاميَ مذ بعت الصِبا وشرابي

وهو الذي مُنِع بعزه ومجده فلم يستطع أعداؤه الانتصاف منه :

وكيف ينتصف الأعداء من رجل العز أوله والمجد آخره ؟

وهو الذي لم يغضّ الأسر من إبائه وعزة نفسه :

ماغضّ مني حادث والقرم قرم حيث حلاّ
أنّى حللت فإنما يدعونني السيفَ المحلّى
فلئن خلَصت فإنني شَرَق العِدى طفلاً وكهلا
ولئن قُتلت فإنما موتُ الكرام الصِيدِ قتلا

ولم تفارقه هذه الكبرياء وعزة النفس طول حياته وفي جميع مواقفه حتى تجاه ابن عمه أمير البلاد وسيد آل حمدان .

عُرضت عَلَى سيف الدولة خيول وأبناء أخيه ناصر الدولة وأبو فراس حاضرون ، فاختار كل منهم ما استحسنه منها إلا

---

(١) بلدة بالشام بين حلب والرقة — معجم البلدان .

أبا فراس ، فاغتاظ منه سيف الدولة وعاتبه ، فأجابه بقصيدة كلها ترفُّع وشَمَم واعتداد بالنفس ومُباهاة بالمكارم :

ويعاف لي طمعَ الحريص أبوّتي ومُروءتي وقناعتي وعفافي
ما كثرةُ الخيل الجياد بزائدي شرفاً ولا عددُ السوام الضافي
ومكارمي عددُ النجوم ومنزلي مأوى الكرام ومنزل الأضياف
لا أقتني لصروف دهري عُدَّةً حتى كأنّ صروفَه أحلافي
خيلي وإن قلّت كثير نفعها بين الصوارم والقنا الرّعاف
شيمٌ عُرفت بهن مذ أنا يافع ولقد عَرفت بمثلها أسلافي !

موقفان لأبي الطيب ينافيان الترفع والشمم

وهنا أذكر بهذه المناسبة حادثتين وقعتا لأبي الطيب لا يقع مثلهما عادةً ممن كان مثله في ترفعه وشممه :

قال ابو الفرج البيغاء : « استدعى سيف الدولة في إحدى الليالي بَدْرة فشقها بسكين الدواة ، فمدّ ابن خالويه طيلسانه فحثا له فيه مقداراً صالحاً ، ومددت ذيل ذراعي فحثا لي جانباً ، والمتنبي حاضر وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا فما فعل ، فغاظه ذلك فنثرها كلها على الغلمان ، فلما رأى المتنبي أنها فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم ، فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه وصارت عمامته في رقبته ، فاستحيا ومضت به ليلة عظيمة . »

وقال أبو بكر الخوارزمي : « حضرت عنده يوماً بحلب وقد أحضر مالاً من صِلات سيف الدولة ، فصبّ بين يديه على حصير قد افترشه ووُزن وأعيد في الكيس ، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خلل الحصير ، فأكب عليها بمجامعه ينقرها ويعالج استنقاذها

ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى توصل إلى إظهار بعضها ، فقال متمثلا بقول قيس بن الخطيم :

تبدّت لنا كالشمس بين غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

ثم استخرجها وأمر باعادتها إلى مكانها من الكيس ، فقال له بعض جلسائه : أما يكفيك ما في هذه الاكياس حتى أدميت إصبعك لأجل هذه القطعة ؟ فقال إنها تحضر المائدة . » !

فأين هذا النزول من أبي الطيب في مجلس الأمير إلى مزاحمة الغلمان يلتقط معهم حتى يدوسوه ويركبوه ؟ وأين هذا الحرص الشديد على قطعة صغيرة متخللة خلل الحصير يعاني استخراجها بنفسه بحضرة جلسائه ويشبه طرفها بحاجب الشمس ثم يقول في قيمتها إنها تُحضر المائدة ؟ أين هذا كله من ترفع أبي فراس وشممه ؟ !

مواقف شريفة لأبي الطيب

إنني لا أنكر أن أبا الطيب أظهر في كثير من المواقف ترفعاً وشمماً يُذكران له كترفُّعه عن مدح ابن كيغلغ الرومي الذي كان يحافظ على الطريق في طرابلس ، واشتراطه على سيف الدولة حين اتصاله به أن لا يكلفه تقبيل الأرض بين يديه ، وموقفه يوم ألقى أمامه قصيدته المشهورة التي أولها :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبِم ومن بجسمي وحالي عنده سقَم (١)

(١) الشبم البارد .

ثم مفارقته له وحرمان نفسه من صلاته الجزيلة وذلك حين صار يُهان في مجلسه وهو لا يغضب له ولا يتحامى العبث به ، ثم امتناعه أخيراً عن العودة إلى حضرته مع نزول سيف الدولة إلى إنفاذ ابنه اليه بهدية سنية وإلى الكتابة إليه بخطه يسأله المسير اليه .

ولكن هاتين الحادثتين تحملانني مع ذلك على القول بأن حرصه على جمع المال كان أشدّ من حرصه على خُلُقي الترفُّع والشمم ، وقد قالوا في تعليل هذا الحرص : إن الألم الذي قاساه في شبابه من الفقر والتعبَ الذي تكبده بعد ذلك في جمع المال والحسدَ الذي عانى مضضه وأذاه في هذا السبيل كل ذلك أهاب به إلى شدة الحرص على المال ليتخذه جُنة يتقي بها شماتة الأعداء وغدر الزمان .

تعليل حرصه على المال

ورووا أنه سُئل عن علة بخله فقيل له : « قد شاع عنك البخل في الآفاق حتى صار مثلاً وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله وتذم البخل ، ألست القائل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومعلوم أن البخل قبيح ومنك أقبح لأنك تتعاطى كبر النفس وعلوّ الهمة وطلب الملك والملك ينافي سائر ذلك ! »

فقال : « إن للبخل سبباً وذلك أني أذكر وقد وردت في صباي من الكوفة إلى بغداد ، فأخذت خمسة دراهم في جانب منديلي وخرجت أمشي في أسواق بغداد ، فمررت برجل يبيع الفاكهة ، فرأيت عنده خمسة من البطيخ

باكورة ، فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي ، فتقدمت إليه وساومته ثمنها ، فقال لي بازدراء اذهب فليس هذا أكلك ، فتماسكت معه وقلت أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد الثمن ، فقال ثمنها عشرة دراهم ، فلشدة ما جبهني به لم أستطع أن أخاطبه في المساومة ، فوقفت حائراً ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ؛ وإذا بشيخ من التجار قد مرّ بنا ، فوثب إليه صاحب البطيخ ودعا له وقال يا مولاي ها بطيخ باكورة باجازتك أحمله إلى منزلك ، فقال الشيخ ويحك بكم هذا ؟ فقال بخمسة دراهم ، فقال بل بدرهمين ، فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره ودعا له وعاد فرحاً مسروراً ؛ فقلت ياهذا مارأيت أعجب من جهلك ! استمتّ عليّ في هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت ، وكنت أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولا ! فقال اسكت هذا يملك مئة ألف دينار ؛ فقلت في نفسي إن الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون أنه يملك مئة ألف دينار ، واعتمدت أن يكون عندي مثلها ، فأنا أجدّ في ذلك على ماتراه حتى يقولوا إن أبا الطيب قدملك مئة ألف دينار . .

فهذه الحكاية تدل على أن حرصه هذا لم يكن مرضاً نفسياً مستولياً على عقله كحرص البخلاء الذين يكنزون المال حباً في المال ذاته وتلذذاً بمنظره واحتوائه دون أن تكون لهم من ورائه غاية أسمى منه ، فقد كان يحرص عليه لأنه يراه داعياً إلى الإكرام والتبجيل بل وأخاً للمجد ومُلازماً له ، وقد صرح بهذا في قوله :

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

ولكن أبا فراس يخالفه في وجهة نظره هذه ، فإنه يرى

المجد في إنفاق المال لا في الحرص عليه ، ويصرّح بذلك في معرِض مدحه لأحد أجداده حيث يقول :

فآبَوْا بجدواه وآب بشكرهم وما منهما في صفقة المجد خاسر

ويشير إلى هذا المعنى في كل موضع من مواضع فخره بالكرم ....

الترفع والشمم في أبي فراس وأبي الطيب

لذا أستطيع أن أقول : إن الترفُّع والشمم من أخلاق شاعرينا كليهما ولكنهما في أبي فراس أقوى وأمكن ، ولعل النشأة العالية التي نشأ عليها والمكان السامي الذي كان يتبوّؤه هما اللذان قوّياهما فيه حتى لم يحدُث أن خاناه قط ، وقد رأيتَ موقفه في الترفع على سيف الدولة نفسه يوم عرْض الخيول والجواب الذي أجابه به حين اغتاظ منه وعاتبه ، وإن شئت أن تقف على مبلغ شممه فاقرأ روميّاته التي نظمها في حالة الأسر وموقف الاستعطاف ، لأن هذه الحالة تُذِل الأعزاء وتسحق كبرياءهم ، ولأن هذا الموقف أدق المواقف ابتلاءً لأخلاق الرجال ومبلغ شممهم .

تأمل في هذه القصيدة التي بعث بها إلى ابن عمه سيف الدولة في طلب الافتداء تجد مطلعها استعطافاً محضاً ثم لا ترى إلا فخراً بتفضيل الموت على سَرَوات الخيل وبياناً للقدر وحسن الصنيعة :

دعوتك للجفن القريح المسهَّد لديَّ وللنوم القليل المشرَّد
وما ذاك بخلاً بالحياة وإنها لأولُ مبذول لأول مجتدي (١)
ولكنني أختار موت بني أبي على سَرَوات الخيل غير مُوسَّد (٢)
نضوت على الأيام ثوب جلادتي ولكنني لم أنضُ ثوب التجلُّد
متى تُخلف الأيام مثلي لكم فتىً شديداً على البأساء غير مُلهَّد؟ (٣)
متى تخلف الأيام مثلي لكم فتىً طويلَ نجاد السيف رحبَ المقلَّد؟ (٤)
فإن تفتدوني تفتدوا شرف العُلى وأسرع عوَّاد إليهم مُعوَّد
وإن تفتدوني تفتدوا لعلاكم فتىً غير مردود اللسان ولا اليد
يطاعن عن أحسابكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند

ولما أبطأ عليه سيف الدولة في أمر الافتداء تبرَّم بحاله وطول أَسره فكتب إليه : « مفاداتي إن تعذرت عليك فأذنْ لي في مكاتبة أهل خُراسان ومراسلتهم ليفادوني وينوبوا عنك في أمري » ، فأجابه سيف الدولة بكلام خشن وقال له : « ومن يعرفك بخراسان ؟ » ، فثارت حينئذ نفسه الأبية فكتب إليه قصيدة يعاتبه فيها ويذكره بمآثره ومشاركته له في النسب ، ولم يُخلها من الفخر شأنه في كل موقف من مواقفه منها :

---

(١) المجتدي السائل . (٢) سروات الخيل خيارها .
(٣) الملهَّد المغموز أو المدفوع لذله .
(٤) نجاد السيف حمالته ، المقلد موضع النجاد على المنكبين .

أتنكر أني شكوت الزمان وأني عتبتك فيمن عتب
فلا تنسبنّ إليّ الخمول عليك أقمت فلم أغترب
وأصبحت منك فإن كان فضل وإن كان نقص فأنت السبب
وإنّ خراسان إن أنكرت علاي فقد عرفتها حلب (١)
ومن أين ينكرني الأبعدون أمن نقص جدّ أمن نقص أب؟
ألست وإياك من أسرة وبيني وبينك عرق النسب؟

أبو الطيب في معتقله

عُدْ بنظرك بعد هذا إلى أبي الطيب في معتقله عقب ادعائه النبوة وإلقاء القبض عليه من قِبل لؤلؤ والي حمص تجده في مبدإ هذا الاعتقال جلداً صبوراً مُوطّناً نفسه على الموت :

كن أيها السجن كيف شئت فقد وطّنت للموت نفسَ معترف
لو كان سكنايَ فيك منقصةً لم يكن الدرُّ ساكنَ الصدف

ثم تراه فاقد الجلَد خائرَ العزم يستعطف الوالي بهذه الأبيات :

أمالك رِقي ومَن شأنُه هِبات اللُّجين وعِتقُ العبيدِ
دعوتك عند انقطاع الرّجا ء والموت مني كحبل الوريدِ
دعوتك لما براني البلاءُ وأوهن رجليَّ ثقل الحديدِ
وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
وكنتُ من الناس في محفلٍ فها أنا في محفل من قرود

(١) العلى جمع عُليا وهي خلاف السفلى .

تُعجّلُ فيَّ وجوبَ الحدودِ وحدّي قُبيلَ وجوب السجودِ

فأين موقف أَبي الطيب في سجنه من موقف أبي فراس في أسره !؟

أَمـا أبو الطيب فقد تجلَّد أَولاً وصبر ووطَّن نفسه على الموت ، ثم لما طال سجنه فقدَ جلَده وخانه صبره فنزل إلى الصورة التي رأَيتها من الاستعطاف ، ولكن إذا راعينا صغر سنه وقتئذٍ وحداثة عهده بالدهر وصدماته واستهدافه للقتل في اللحظة التي يعنُّ للوالي فيها إقامة الحد عليه — إذا راعينا ذلك عذرناه .

عودة إلى أبي فراس في الأسر

وأَما أبو فراس فلم يَغضَّ الأَسر من إبائه وعزَّة نفسه ، وإن استعطف فلم يستعطف سوى ابن عمه أَمير البلاد وقد أُسر في سبيل الذَّب عن ثغوره وحمايتها ، فكان من حقه عليه أن يفتديه ، لذلك لم ينزل في استعطافه إياه إلى دَرَك الرقّ والعبودية .

نعم كانت نفسه تتعذَّب من مَهانة الأَسر ويتبرَّم بحاله فيقول :

ما للعبيد من الذي يقضي به الله امتناع
ذدت الأَسود عن الفرا ئس ثم تفرسني الضباع !

وإني لنزّال بكل مَخوفة كثير إلى نزّالها النظر الشزر (١)
وإني لجرّار لكل كتيبة معوَّدةٍ أن لا يُخلَّ بها النصر
فأصدى إلى أن ترتوي البيض والقنا وأسغَبُ حتى يشبعَ الذئب والنسر (٢)
ولا أُصبِحُ الحيَّ الخُلوفَ لغارة أو الجيشَ مالم تأته قبليَ النُّذر (٣)
ويارُبَّ دار لم تُخفني منيعةٍ طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وساحبةِ الأذيال نحوي لقيتها فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر
وهبت لها ماحازه الجيش كله ورحت ولم يُكشَف لأبياتها ستر
ولا راح يُطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي في المال أبغي وُفوره إذا لم أفِرْ عِرضي ولا وفر الوفر (٤)

ثم وصف حادث أسره وصفاً صادقاً مؤثراً اعتذر به ، بل استطاع أن يُظهر منه دليلاً جديداً على إبائه العيب والذل :

أُسرت وماصحبي بعُزل لدى الوغى ولا فرسي مُهر ولا ربُّه غُمر (٥)
ولكن إذا خُمَّ القضاءُ على امرئٍ فليس له برٌّ يقيه ولا بحر
وقال أُصيحابي الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مرّ

---

(١) النظر الشزر هو النظر بمؤخر العين في إعراض كنظر المباغض .
(٢) الصدى العطش ، والسغب الجوع .
(٣) الحي خلوف رجالهم غُيّب ليس منهم إلا من يستقي الماء .
(٤) وفر الشيء وفوراً تم وكمل ووفره وفراً أتمه واكمله ووفر عرضه وفراً صانه ووقاه .
(٥) الغمر بالضم من لم يجرب الأمور .

ولكنني أمضي لما لا يَعيبني وحسبك من أمرين خيرهما الأَسر
ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوأته عمرو

ثم ذكر شدة أَثره في أعدائه وعلوّ منزلته بين قومه :

يمنون أن خلّوا ثيابي وإنما عليَّ ثياب من دمائهمُ حمر
وقائم سيف فيهمُ دُقَّ نصلُه وأعقاب رمح فيهمُ حُطِم الصدر
سيذكرني قومي إذا جدَّ جِدُّهم وفي الليلة الظلماء يُفتَقد البدر
ولو سد غيري ما سددت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصُّفر (١)

ثم ختم القصيدة بهذه الأبيات الثلاثة :

ونحن أناسٌ لا توسُّط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يُغلها المهر
أعز بني الدنيا وأعلى ذوي العلى وأكرم من فوق التراب ولا فخر

الأسلوب

أعود بعد كل ذلك فأقول كلمة في أسلوب الشاعرين أبي الطيب وأبي فراس وطريقتهما في الفخر ولغة كل منهما في هذا النوع من الشعر ، لأن لكل شاعر أسلوباً على قدر طبعه وعاطفته وتصوُّره ، وألفاظاً يحبها فيكثر من استعمالها في معرض الافصاح عن أفكاره وإظهار العواطف التي تختلج في قلبه ، مع العلم بأن لغة الفخر تناسبها الأساليب الرصينة والالفاظ الفخمة لما لها من الروعة في النفوس ، ولأن منزلة الفخر من الشعر

(١) الصفر بالضم النحاس .

كمنزلة الخَطابة من النثر .

أسلوب أبي الطيب ولغته في الفخر

علمنا أن أَبا الطيب قرأَ شعراً كثيراً لمن تقدمه من الشعراء على اختلاف طبقاتهم ، فهل تأثر بما قرأه ؟ وهل نسج في الفخر على منوال من تقدمه ؟ لأن الفخر وحده هو الذي يَعنيني في هذه الرسالة .

قابلت بين شعره الفخري وما تيسر لي الاطلاع عليه من أشعار المتقدمين أمثال المهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حِلّزة وعنترة وحسان والفرزدق وجرير وغيرهم ممن طرقوا باب الفخر ، فلم أجد شبهاً يُذكَر إلا في الصور الشائعة التي تخطر على بال كل شاعر فخور ، وهذه لا يصح أن تُنسَب إلى شاعر دون آخر ، فهو إذاً لم يعمِد إلى الاقتباس من غيره في شعره الفخري ، بل انفرد فيه بصور وعبارات لم يعرض لها سواه كالتصريح بالإعجاب بنفسه وبأنه عجيب واحتقار كل الخلق وتشبيههم بشعرة في المفرِق والتشبُّه بالأنبياء في أَقوامهم وسكون اللحم والعظم وموات الموت وذُعر الذُّعر وما إلى ذلك من الصور والألفاظ وصيغ التصغير أيضاً مما لم أَعثر على مثله في فخر من تقدمه من الشعراء .

مع ذلك فقد وجدته في بعض الأحيان يحذو حذو شيخه

أبي تمام في الترديد الذي منه الخفيف كما في قوله :

وطعنٍ كأنَّ الطعن لا طعن عنده وضربٍ كأنَّ النار من حره برد

ومنه الثقيل كما في قوله :

فقلقلت بالهمِّ الذي قلقل الحشا قلاقل عِيس كلهن قلاقل

ويستحسن بعض الصُّور والألفاظ التي يجدها في شعره فينقلها ويَصوغها في قوالب أخرى ثم يظهرها في ثوب غير ثوبها الأول ، قرأ لأبي تمام قوله :

همة تنطح النجوم وجِدٌّ آلِفٌ للحضيض فهو حضيض

فأعجبه هذا المعنى فاقتبسه وعبَّر عنه بقوله :

أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود

وأعجبه لفظ « تنطح النجوم » فأخذه واستعمله في قوله :

شرف ينطح النجوم برَوْقيه وعزٌّ يُقلقل الأجبالا [1]

والاقتباس الذي من هذا النوع لا أراه مَعيباً ما دام الشاعر يستطيع أن يصوغ المعنى الذي يقتبسه في قالَب جديد ويقدر أن يضع اللفظ الذي ينقله في الموضع اللائق به ، لا سيَّما إذا أضاف إليه معنىً آخر يناسبه كما فعل أبو الطيب بزيادة كلمة « رَوقيه » وهي من لوازم المشبه به التي تكشف

(١) الروق القرن .

صورته وتقرّبها من الأذهان ، على أنه لم يكن يهتم بانتقاء الألفاظ ولم يكن يحفل بها لنفسها بل لأداء المعنى الذي يريده فقط ، حتى لَيُخيَّلُ إليك وأنت تقرأ أشعاره الفخرية أنه يرتجلها ارتجالاً ويفيض بها فيضاً ، ثم لا تستغربُ ذلك بعد أن علمت أن ما حصّله من المادة اللغوية في نشأتيه الحضرية والبدوية لم يحصّل مثلها شاعر في عصره ، وحينئذٍ تشاركني في قولي : [إن أبا الطيب لا يدخل في زمرة الشعراء الذين يُعنَون بانتقاء الألفاظ] وإن كان يقول :

شاعرُ المجد خِدنُه شاعرُ اللفـ ـظ كلانا ربُّ المعاني الدِّقاق[1]

أسلوب أبي فراس ولغته في الفخر

فلننتقل الآن إلى الكلام على أُسلوب أبي فراس في شعره الفخري وعلى اللغة التي استعملها في هذا الشعر .

علمنا أنه شاعر شريف مُتحدّر من قبيلة تَغلِب التي أنجبت المهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم ذَينك الشاعرين الفخورين ، فهل تأثر شاعرنا بشعرهما ؟ وهل حذوهما في الأسلوب والألفاظ ؟

هذا ما خطر على بالي حين أردت البحث عن أُسلوب أَبي فراس وأَلفاظه ، فقرأت أَشعارهما وهي ليست بكثيرة ،

---

(١) الخدن الصديق .

فتمثلت لي أرواح الثلاثة متجلّية فيها قبل أن تتضح لي صناعتهم الشعرية ، تمثلت لي في صورة واحدة وهي صورة سيد مَهيب الطلعة يزهو بسودَده وشجاعته وسخائه ، فلم أعجَب من ذلك لأني أعلم أن الثلاثة من أرومة واحدة[1] تجمعهم صفات واحدة وهي شرف النسب وقوة العصبية والشجاعة والكرم ، ثم وجدت شبهاً قوياً في عناصر الفخر التي يفخر بها كل واحد منهم وهي بوجه الإجمال الصفات المذكورة ولوازمها كذكر الأيام والمآثر والاعتداد بالقوة والشجاعة والمباهاة بمنعة الجناب وعزة الجار ونحر اللقاح ومد الجفان ... ، ورأيت أبا فراس يحذو حذوَ ابن كلثوم في ذكر أسماء رجال الأسرة والعشيرة وأعمالهم والافتخار بوراثة المجد عن الآباء والاجداد وبتشييد مثله واكتساب غيره ويأخذ بعض الصور الفخرية التي يستحسنها من شعره فيتصرف في ملامحها ويظهرها في حلة غير حلتها الأولى .

استحسن — مثلاً — هذه الصورة الفخرية التي رآها في قوله:

اذا بلغ الرضيعُ لنا فطاماً تخرُّ له الجبابر ساجدينا

ولكنه وجدها مع روْعتها لاتمثل الحقيقة تمثيلاً صادقاً للمبالغة الشديدة التي تُصاحبها ، فصاغها عَلَى هيئة أقرب إلى الحقيقة

---

(١) الأرومة بالفتح وتضم الأصل .

من هيئتها الأولى وأبرزها في ثوب أرقّ من ثوبها الأول فقال :

إذا وُلد المولود منا فإنما — الأسنة والبيض الرقاق تمائمه

مع ذلك فإنه لم يقتصر على اقتفاء أثر المهلهل وابن كلثوم فقد نظر في شعر غيرهما من شعراء العهد الجاهلي بل وشعراء العهد الأموي ، لذلك تجد شعره كثير الشبه بشعر المتقدمين في الأسلوب والألفاظ وصفات الفخر ، وقد قدّمتُ منه مافيه الكفاية لحصول القناعة ، وإن شئت الزيادة فاسمع له هذه الأبيات :

إنا إذا اشتد الزما — ن وناب خَطب وادلهم
ألفيت حول بيوتنا — عُدد الشجاعة والكرم
للقا العدى بيض السيو — ف وللنّدى حمر النّعم
هذا وهذا دأبنا — بودَى دم ويراق دم

فهل ترى فرقًا بينها وبين الشعر الجاهلي في صفات الفخر وروعة المعنى ورصانة الأسلوب ؟ ثم تأمل في ألفاظ هذه الأبيات ومعانيها :

إذا مررت بواد جاش غاربه — فاعقل قلوصك ذاك الترب وادينا[1]
وإن وقفت بنادٍ لا يُطيف به — أهل السفاهة فاجلس فهو نادينا
نُغير في الهجمة الغراء ننحرها — حتى ليَعطش في الأحيان راعينا[2]

---

(١) غارب الوادي أعلاه ، جاش زخر ، القلوص الشابة من الابل .

(٢) نغير نسرع ، الهجمة مادون المئة من الابل أو الاربعون فما زادت .

تَجفّلُ الشَّولُ بعد الخِمس صاديةً إذا سمعن على الأمواه حادينا [١]

وتُصبح الكوم أشتاتًا مروَّعةً لا تأمَنُ الدهر إلا من أعادينا [٢]

ويُصبح الضيف أولانا بمنزلنا نرضى بذاك ويمضي حكمه فينا

وتناس أنها لأبي فراس من شعراء القرن الرابع ، فهل تتردد في الحكم بأنها لفتىً من سادات ربيعة [٣] في العهد الجاهلي يتغنى بسؤدده وكرمه ؟

تأمل في بيتيه هذين :

ناري على شَرَف تُؤجّ ـ ـ ج للضيوف الساريه [٤]

يا نار إن لم تجلبي ضيفًا فلست بناريه !

وقابلهما ببيتي حاتم الطائي :

أوقد فإن الليل ليل قَرٌّ والريحَ يا غلام ريح صِرٌّ [٥]

لعلّ أن يُبصرها المعترُّ إن جلبت ضيفًا فأنت حُرٌّ ! [٦]

فترى الأسلوب واحداً والصورة واحدة ولا تجد بينهما فرقًا سوى أن أبا فراس يخاطب ناره ويقول لها إن لم تجلبي ضيفًا

---

(١) الشول جمع شائلة وهي الناقة التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، الخمس شر أظماء الابل وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع .

(٢) الكوم جمع كوماء وهي الناقة العظيمة السنام .

(٣) اشتهر شعراء ربيعة برصانة الأسلوب مع سهولة الألفاظ ورقتها .

(٤) الشرف من الأرض ما علا منها ، تؤجج توقد .

(٥) الليل القر البارد ، الريح الصر الشديدة الصوت أو البرد .

(٦) المعتر : الضيف الزائر أو المتعرض للسؤال .

فلست بناري وحاتمًا يخاطب غلامه ويقول له إن جلبت النار ضيفًا فأنت حر .

ثم قابل بيته هذا :

إذا أمست نِزارُ لنا عبيداً فإن الناس كلهمُ نزار

ببيت جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

تجد الوَحدة تامة في الأسلوب وفي الصورة : فإن أبا فراس يعدّ استعباد نزار استعباداً للناس كلهم ، وجريراً يعدّ غضب بني تميم غضب الناس كلهم ؛ ولا يُهمني كون أبي فراس سرق من حاتم أو من جرير أو من غيرهما ، بل الذي يُهمني هو إقامة الدليل على أنه استطاع مجاراة المتقدمين من فحول الشعراء في أساليبهم الرصينة وصفات الفخر التي كانوا يعمِدون إليها ، وأنه أحسن المجاراة دون تكلف ولا مغالاة ، وأنه لم يتأثر بأساليب المولَّدين من شعراء عصره ، وأن الفخر الذي عُني به كان قومياً أكثر منه ذاتياً (شخصياً) مع العلم بأن شرف محتِده وصفاء عروبته في نسبه ونشأته كانا من أكبر العوامل التي أعانته على ذلك ، فهو من هذه الناحية يمتاز عن أبي الطيب الذي لم يسرْ في طريقته ولا في

صفات فخره على الأسلوب القديم الذي سار عليه أبو فراس ، ولم يخصص للفخر جانباً معيناً من شعره ، بل تراه مبعثراً في أضعاف قصائده على اختلاف موضوعاتها مقروناً بالعجب وشدة (الأنانية) ، لذا يمكنني أن أقول دون شيء من التردد :

أبو الطيب شاعر العظمة والكبرياء

[إن أبا الطيب شاعر عظيم يجابهك بالعظمة أنّى واجهته ، ويريك آثار هذه العظمة في كل ناحية من نواحي شعره ، سواء فيه الفخر والمديح والهجاء والرثاء حتى الحكم ، فهو شاعر العظمة والكبرياء غير مُدافَع .]

ابو فراس شاعر المجد والفخر

وإن أبا فراس شاعر فخور يقابلك بالفخر أنّى واجهته ، أنفه أبيّ في كل موقف من مواقفه ، فارس شجاع في كل وقعة من وقائعه ، شريّ ماجد من سَراة أماجد لايحلون الا الصدور أو القبور ، فهو شاعر المجد والفخر غير مُنازَع .

P	T	V
758	293	880
760	303	x

$$\frac{500 \times 303 \times 758}{760 \times 293} =$$

JAFFE LIB.
21 JUN 2004
Circulation Dept

JAFFE LIB.
15 APR 2002
Circulation Dept

DATE DUE

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00330636

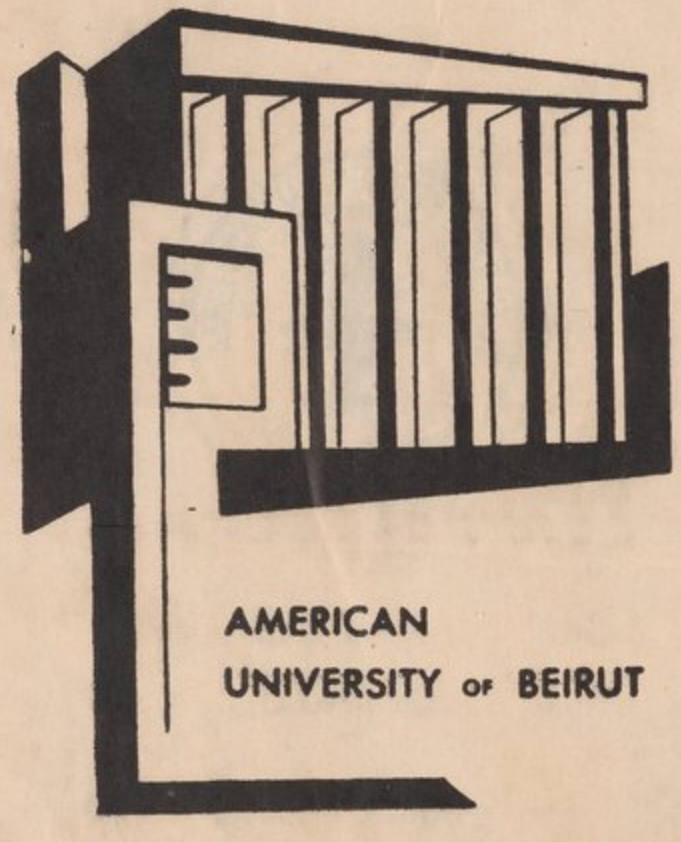

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.7109
B165FA